المحاضرة الثانية: المسار الفلسفي البرغماتي

يقوم البحث اللساني على الاهتمام بدراسة اللغة من كافة الجوانب؛ويقتضي هذاالألمام بمختلف قضايا اللغة من قبيل : أصل اللغة ونشأتها وتطورها ... ، إلا أن البحث اللساني _ وإلى حد غير بعيد_ ظل متمسكا بما هو صوري وصفي في دراسة اللغة، ومن ثمة خضعت دراسة اللغة، وفق هذا المنظور، لوجهة نظر الباحث فيها ، من حيث الأدوات المنهجية التي يوظفها في تحليله ذاك . وعلى هذا عمرت المرحلة الوصفية ردحا طويلا من الزمن.

وفي مرحلة تالية، ظهرت المدرسة البنيوية التي دعت إلى تحليل اللغة والخطاب على أساس منغلق، أي أن النص آلة لتصنيع الأشكال اللغوية القابلة للتفكيك ثم إعادة التركيب والبناء ، حيث إنه«باللغة نعرف العالم وبها نبنيه، لم تعد اللغة وسيلة سلبية لنقل الأفكار والمفاهيم القبلية، إنما هي من ينتج الأفكار والمفاهيم التي تنقل بواسطتها»، ثم مالبثت المدرسة البنوية حتى أخذت تتلقى ضربات تقويضية على يد تيار التفكيكية، الذي عد بمثابة التحليل الاستدراكي للفكر الغربي في جميع مظاهره .

ومع هذه الضربات التقويضية لحركة التفكيك نشأت المدرسة"البنيوية التكوينية" ، التي دعت إلى الاستعانة بما هو اجتماعي في التحليل البنيوي .وكان من نتائج هذه الدعوة أن ظهر ما يعرف بـ : "سوسيولوجيا الأدب" بزعامة "لوسيان قولدمان" ، و"أمبرتو إيكو" وذلك من خلال كتابه "البنية الخفية" والتي يقصد بها "البنية المجتمعية" .

وهذا أمر لم يكن من أفكار البنيوية فيما سبق ، فقد انغلق التيار البنيوي على اللغة، ورأى أنها الوسيلة التي تمكننا من فهم مغاليق اللغة ذاتها، وأن أي عنصر دخيل عنهاسيحُول بينها وبين الوصول إلى المكونات الأساسية للنص، ومع ذلك واصل الدرس البنيوي تشريحا للخطاب اللغوي مدها، وسعى في تحليل النص الأدبي، وظهر توجه بنيوي عمد إلى تطبيق إجراءات المنهج الشكلي،من رواده : غريماس ، جيرار جينيت ، كورتيس، دريدا ...وآخرون .

وفق هذا المناخ التاريخي المتسم بالإجراء المنهجي الصارم، ظهر الاتجاه التداولي الذي سعى إلى التوليف بين ما هو لغوي وما هو سلوكي، وحاول أن يقدم للنقاد والعاملين في حقل الأدب ، والمتعاملين مع النصوص الأدبية ، أدوات إجرائية ومنهجية تعينهم على أن ينْفذوا إلى أعماق البنية الإبداعية عند المبدع ، وفق ربط العملية الإتصالية بغاياتها المقصدية والعملية، و هنا تكمن فائدة هذا المنهج في أنه يقدم أدوات جديدة

للعمل النقدي الذي يتعامل فيه مع جميع النصوص الإبداعية ، والتركيز على النص "المتحرك" ، أي معاينته أثناء أدائه وظيفته التواصلية .

إن التداولية وإن كانت تيارا جديدا، إلا أنها مفهوم قديم جدا ، فقد عثر على كلمة "Pragmaticus" (التداولية) عند الإغريق واللاتين، والتي تدل على كل ما هو عملي بطبعه. بينما الاستعمال الحديث للتداولية Pragmatiqueيعود إلى تأثير الفلسفة الأمريكية "البراغماتية". وذلك بعد أن توسع مفهوم البراغماتية ليشمل فلسفة اللغة . فمنذ أن نبّه الفيلسوف "شارل موريس" في كتابه "أسس نظرية العلامات 1983 "إلى أن التداولية يجب أن تهتم بدراسة علاقات العلامة بالمؤولين ، مذ ذاك انصب اهتمام التداولية على البعد العملي اللغة ، ممثلا في طرائق المحادثة ونجاعة الخطاب .

وبناء على هذا؛ تم توصيف التداولية بأنها فهم اللغة الطبيعية . بما يعني انفصال البحث التداولي بوصفه مبحثا لسانيا عن الفلسفة البراغماتية النفعية،التي استفادت منها اللسانيات التداولية في النشأة والتطور ، وأضحت التداولية قسما من أقسام اللسانيات ، لقد شهدت الدراسات التداولية تطورا سريعا في الغرب الأنجلوساكسوني ، ويعزى هذا التقدم إلى جهود الباحثين الذين كان لهم الباع الطويل في هذا التطور . وذلك ما حصل في بلدان الأراضي المنخفضة والدانمرك والنرويج وبلجيكا . وكان من ثمرات هذا التطور أن تمخض عن ميلاد "الجمعية التداولية العالميةIPRA "العام 1987 .

وظلت التداولية ذات وجهة فلسفية، تدين بالولاء للفلسفة ممارسة قبل اللسانيات، ثم ما لبثت تتبدل، محاولة أخذ الطابع الشمولي اللغوي والنقدي، وما تجدر إليه ها هنا هو أنه بالرغم مما بذهب إليه الكثير من الباحثين من أن التداولية Pragmatique، والمذهب الذرائعي الفلسفي Pragmatismeمختلفان· إلا أن بعض الباحثين يرى أن المذهب الذرائعي هو أحد مصادر التداولية ، وأصل التسمية يعود إلى منظري السيمياء مثل :"ش.س.بورس"..،"شارل موريس"، "جون ديوي"...

وفق هذا المسيرة التاريخية، اتخذت اللسانيات التداولية في مسارهامنحيين ؛ الأول عني بالبحث اللساني والثاني بالدراسات الفلسفية. وقد وظف المنحى الأول التداولية بوصفها جزء من السيميائية اللسانية ، و بعلاقتها بأنظمة العلامات عموماً، ويلاحظ بأن هذا الاتجاه اللساني ما زال ساريا لحد الآن في اللسانيات الأوربية ، أما الدراسات الفلسفية فقد استثمرت المفاهيم التداولية في إطار الفلسفة التحليلية.

وقد ظل مفهوم التداولية مفهوما عبر تخصصي يضم مجموعة من المعارف والعلوم .فكل باحث يوظف الجانب المعرفي الملائم لمجال اشتغاله فها هو الفيلسوف "كارناب" يوظف المفاهيم التداولية وكأنها سيمياء

وصفية ، بيد أن هذه البحوث التي استندت إلى هذا الفيلسوف قد اعتراها التوسع لتشمل دراسات من خارج اللسانيات ، نذكر منها : دراسات فرويد ، ويونغ عن "زلات اللسان" و"تداعي الكلمات" .

وامتد اتساع المفهوم عند كارناب إلى تعريف مفهوم "السياق"،ذلك أن "كارناب" حاول أن يبيّن مدى أهمية وضع قيمة زمان ومكان الحدث الكلامي ، علاوة على دراسة اللغة المستعملة . ويرى كارناب أن السياق الذي ينطوي على هويات المشاركين في الحدث الكلامي ، ومقاصدهم منه ، والمحددات الزمانية والمكانية ، والمعتقدات .

ومن الفلاسفة المساهمين في النهوض بمفاهيم التداوليات نجد "موريس" ، الذي سعى إلى اصباغ التداولية بالظواهر النفسية والاجتماعية الموجودة داخل أنظمة العلامات بشكل عام ، أو داخل اللغة بشكل خاص . ودراسة التصورات التجريدية التي تشير إلى الفاعلين ، وكذا دراسة المفردات التأشيرية.

واستنادا إلى ما قيل عن هذا المنهج الجديد ، تشير الدراسات إلى أن ظهور التداولية كمنهج ونظرية ، يعود الفضل فيه إلى الفيلسوف الإنجليزي "ج.أوستن "، بصدور مؤلفه "كيف نصنع الأشياء بالكلمات"، واصفا التداولية بأنها: جزء من دراسة أعم : هي دراسة التعامل اللغوي من حيث هي جزء من التعامل الاجتماعي .»

إن العلامة الفارقة في البحث التداولي كانت أبحاث أوستين ، فقد سعى إلى نقل دراسة اللغة من النظر إليها من جانبها اللغوي والنحوي والنفسي لها ، إلى المستوى الاجتماعي ، ودائرة التأثير والتأثر من خلال استعمال اللغة لتحقيق التواصل .الأمر الذي أدى إلى نشوء جملة من التيارات في إطار دراسة التعامل اللغوي أهمها التيار الأوستيني أو البراغماتية عند استعمال اللغة ، ويُعدّ "غرايسGrice"أحد أبرع أعلام هذا التيار .